فى الموسيقى الشرقية

تاريخ فن عاش بين التوثب والجمود

للاستاذ صفر على

وكيل معهد الموسيقى الشرقى

وقفنا بالقراء فى العدد السابق عند انتقال الموسيقى الفارسية إلى الاستانة ، وها نحن نستوفى البحث فنقول :

موسيقى يخلص جيشا

كان انتهاء الموسيقى الى الاندلس باعث إذاعتها ، فقد نفذت منها الموشحات الى المغرب ، ومصر ، والشام ، والعراق ، ثم شاعت فى ممالك الشرق العربى حتى دخلت الاستانة للمرة الأولى عام ١٦٣٧ .

ولقد امتزج دخول الموسيقى الى تركيا بحادث يجدر بنا أن نذيعه لأنه يفصح لك عن تأثيرها القوى ، واستيلائها على القلوب والمشاعر ، فلقد حاصر السلطان مراد الرابع بغداد حصارا طالت أيامه ، وكانت بغداد مليئة بالفرس اذ ذاك ، فلما فتحها قبض على بضعة آلاف منهم ، ولم يكن هناك من سبيل يلجأون اليه فى كنف السلطان الفاتح الا القبور . . . وكانت عملية الموت قد أخذت طريقها الى الفرس المنهزمين ، و بينما كان السلطان يشبع عينيه من منظر المذبحة ، اذا بواحد من الفرس يخترق الصفوف حتى كان على بعد خطوات . . . كان ذلك الفارسي « شاه كولى » أكبر موسيقي الفرس وكان كل عمله أنه أخذ يستجدى عطف السلطان على قومه لتعمهم رحمته . . . ومن ثم فقد استرسل في الغناء بصوت شجى يأخذ بمجامع القلوب ، فكان استرحامه بالغ الأثر ، وما كاد يبلغ الشأو من كلامه ، حتي دمعت عينا السلطان فعفا عن الفرس ، واصطحب الرجل مع زمرة من أتباعه الموسيقيين ، ودخل بهم الاستانة فنشروا فنهم هناك وأذاعوه .

رقدة بغيضة

لم تعرف الموسيقى الشرقية من طورها الاول عند العرب عهدا أكثر دكنة وأشد قتامة من عهد المماليك في مصر ، اذ تأخرت الموسيقى — كل العلوم والمعارف — فى ذلك العهد المظلم والذى كان سبة في جبين مصر . وكل الذى وصلنا عن الموسيقى فى ذلك العصر على حداثته نبذ قليلة ذكرها (فلوتو) فى كتابه « وصف مصر » في الجزء الرابع عشر . على أن الذى يؤسف له أنه لم يتحر استيفاءها من مصادر صحيحة ، فزاد بذلك الطين بلة ! .

عصر محمد على باشا فى مصر

ولكن لم تطل هدنة ذلك المرض الذى انتاب الموسيقى ، اذ قدرلها أن تحيا حياة ثانية بدخول محمد على باشا الذى تعهد الموسيقى بعنايته ، و بذل فيها من جهوده ما انتشلها من وهدة ذلك الركود الذى تردت فيه فى عصر المماليك في مصر ،وقد ظهرفى عهده من رجال الموسيقي رجال يعتبرون حجر الزاوية فى بناء ذلك الفن في العصر الحديث ، وفى طليعتهم الفني المشهور « محمد المقدم » أستاذ « عبده الحامولى » وكذا « ساكنة » المغنية و « محمد القبانى » كبير الملحنين و « خطاب القانونجى » وغيرهم . وهؤلاء هم زعماء هذا الفن في عصرهم وواضعو أساسه .

انتعاش جديد

ونقول : انتعاش جديد حقيقة ، لأن ذلك الفن ـ من عصر محمد على باشا الى الخديوى اسماعيل ـ كان لا يزال كالطفل فى أدواره الاولى ، الى أن جاء عصر الخديوى اسماعيل فتقدمت الموسيقي فى عصره بخطوات واسعة نحو الكمال ، وقد كان له بها غرام خاص فاستقدم لاجل ذلك المشاهيرمن الموسيقين الاتراك الذين نشروا في مصر نوعامن الموسيقي يسمى «البشرف » وهو يشبه مايسمونه « الافتتاح أو المقدمة » وكذلك بعض الانغام التى لم تكن معروفة من قبل ، وقد ظهرفى ذلك العهد نوابغ ذلك الفن فى التلحين والغناء أمثال : المرحومين عبده الحامولى أفندى ، ومحمد عثمان أفندى : أولهما موسيقى ومغن كبير ،وكانت له عندالخديوى منزلة سامية، وسافرمعه الى الاستانة، وسمع هناك الموسيقي التركية . فلما رجع الى مصر كان يحضر دائما مع الموسيقيين الاتراك، فاستمالته ألحانهم وقد اقتبس منها مايوافق المزاج المصري ، ويناسب الذوق العربى . وهوأول من أدخل على الموسيقي العربية نغمات: الحجاز كار ، والنهاوند، والعجم، وغيرها، بعدان كانت قاصرة على الاناشيد التي كانت تلقى في حفلات الذكر، و بعض الموشحات من نغمات محدودة ، مثل البياتى والصبا .

هذه صورة مصغرة نقدمها بين يدى القراء لمجهودات ذلك العبقرى الفنان ، الذى خدم ذلك الفن الجميل بمجهوداته المثمرة وصوته العذب الرنان ، والذى بلغت الموسيقى على يديه الشأو البالغ، والذى ترك فى عالمها بعد وفاته فراغا كبيرا يدركه الذين سمعوه فى حياته و يقدرونه. وأما محمد أفندى عثمان فقد كان لا يقل عن زميله انتاجا ولا تقديرا للفن ولا عبقرية، وقد كان كذلك من كبار الملحنين والمغنيين، وهوأول من أدخل على الموسيقي طريقة «الكروموس» وهى الاخذ والرد بين المغني (رئيس التخت) والمذهبجية، ولا تزال مستعملة فى عصرنا أيضا .

وليس استقدام موسيقى الاتراك هو كل مافعله الخديوى اسماعيل فى الموسيقى، بل انشأ أيضا (أوركسترا) من المصريين للموسيقى الوترية ، واستقدم له أساتذة أكفاء من أوربا لتعليم مختلف الآلات الغربية ، وقد تخرج على أيديهم كثير من الموسيقيين الذين غذوا المسارح فيما بعد ، وتنوعت بعد ذلك الآلات، ودخل عليها كثير من التحسين، ولا سيما الآلات النحاسية .

الاغانى المسرحية :

ونستطيع أن نقول : إن هذا كان النواة الاولى فى انشاء الغناء المسرحى ، حيث كان الغناء قبل عهد اسماعيل قاصرا على أدوار صغيرة ملحنة على نمط واحد ، أو على مواويل وموشحات توارثها المصريون عن العرب وكانوا ينشدون بعض القصائد فى حفلات الذكر، وعند تلاوة القصة النبوية ، وكانت تلقى بواسطة الفقهاء ، ويعتبر واضع أساسه المرحومان أبو خليل القبانى والشيخ سلامه حجازى .

نهضة جديدة :

نهضت الموسيقى نهضة أخرى أوسع مدى ، ففى سنة ١٩٠١ اجتمع لفيف من هواة ذلك الفن ، وخصصوا لهم مكانا يجتمعون فيه للسمر فى منزل الاستاذ مصطفى رضا كان يؤمه بعض هواة الموسيقى المشهورين أمثال الاساتذة : حسن أنور ، ومنصور عوض ، وكامل رشدى وصفر على ، وغيرهم ، واستمروا كذلك حتى كانت سنة ١٩١٤ فانضم اليهم كثيرون فأسسوا معهد الموسيقى الشرقى ، الغرض الاول من انشائه التعاون على تجديد الموسيقى الشرقية ، ونشرها والعمل على رقيها.

معهد الموسيقى الشرقى :

قلنا : إن تلك الجماعة هى نواة هذا المعهد ، إذ تكونت هيئته منها فى سنة ١٩١٤ وقد قام بمهمته على أتم وجه، حتى كانت سنة ١٩٢٥ حيث تم الاتفاق بينه وبين وزارة المعارف على إنشاء مدرسة للموسيقى ، وقد شمله جلالة الملك برعايته وافتتحه رسميا فى ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، وقد أصبح عاملا قويا فى نشر الموسيقى وترقيتها ، كما ان أعضاءه مازالوا جادين فى النهوض به إلى غاية الكمال ، وبه فرع مدرسى لتعليم الموسيقى على أنواعها، ويشجع ذوى الاصوات الحسنة ، ويمنحهم مكافآت مالية ، ويتعلمون به مختلف أنواع الموسيقى .

هذه معلومات موجزة عن نظام المعهد ، ونحن نرجو له دوام التقدم فى خدمة ذلك الفن الجميل وفى ظل جلالة مولانا الملك المعظم ؟

السيد عبد المطلب